الحجّاج بن يوسف الثقفي
جبار الحرب الذي أخمد الثورات وقضي
على المتمردين والخارجين

نحن اليوم مع شخصية عجيبة ، إنها شخصية الحجاج بن يوسفَ الثَّقَفِيّ الذى ملأ ذكرُه الكتبَ قديمَها وحديثهَا ، لقد كان عجيبا فى نشأته ، وتكوينه النفسىّ ، وبلوغه عالم الشهرة فى زمن قصير من حياةٍ لم تزد على خمس وخمسين سنة !

ويقول التاريخ : إنه بدأ حياته معلِّما للصبيان بالطائف حيث ولد ، مشاركا أباه فى هذه المهنة !

ثم التحق بشرطة «ابن زنْباع» الذى رشحه ليقوم بهذه المهمة، لدى الخليفة بعد أن رأى تهاون الناس.

فتولى أمر عسكر «عبد الملك بن مَرْوان» ، لما عرف به من القسوة والمبالغة فى العقوبة!

ثم وجهه عبد الملك بن مروان إلى «الحجاز» لإخماد ثورة «عبد الله بن الزبير» فنجح فى إخمادها ، والقضاء عليها فى مهدها ! فكان القائد الذي مكن لبني أمية !

ثم تولى أمر «العراق» فحكمه بالسيف والحديد طوال عشرين عاما أخرس فيها الألسنة ، وأشاع الرعب والفزع فى النفوس ، ومكن لبنى أمية فى الأرض بلسانه وسيفه حيث قتل خَلْقاً كثيرا ؛ أشهرهم : «سَعيدُ بنُ جُبَير» الذى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل قولته المشهورة :

«قتَلَ الحجاجُ سعيدَ بنَ جُبَيْر ، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه»!!

وهناك جوانب أخرى سجلها التاريخُ للحجاج ومن حقك أن

تعرفَ ماله وما عليه إن أردت الحكم عليه!

فقد كان الحجاج أحدَ فصحاء العرب المشهورين وكفاه قول « أبى عمرو بن العَلاء» : «ما رأيت أحدًا أفصحَ من الحسن البَصْرِىّ، والحجاجِ» .

وهو صاحب اليد الطُّولَى على اللغة العربية ، فقد كانت الحروف بلا نقط مما جعل الناس يَلْحَنُون ويُخطئون وكان العلاجُ هو وضع النقط فوق الحروف وتحتها فى لغتنا الشريفة .

ويقال : إن الذى وضع النقط التى تميز الحروف المتشابهة فى الرسم كالباء والتاء ، والراء ، والزاى ، والحاء والجيم ، والخاء هو «نصر بن عاصم» ؛ وضعها أفرادًا ، وأزواجًا ، وخالف بين أماكنها ، فنقطة ، ونقطتان ، وثلاث ، وفوق الحرف وتحته ، وهو أيضا - أحد الذين شاركوا «أبا الأسود الدؤلى» فى وضع قواعد النحو العربى ، وتأصيل أصوله .

ومن أوليات الحجاج أنه أول من ضرب درهما عليه :

«لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

والحجاج خطيب من خطباء العرب المفوَّهين ، ممن ملكوا ناصية البلاغة ، حتى قالوا : إن الحجاج كان ينال بكلامه مالا ينال بحدّ حُسامِه، ومازلنا نذكر خطبته بالكوفة أول ولايته على العراق تلك التى قال فيها :

أنا ابن جَلاَ [1] وطلاّعُ الثَّنَايَا [2]

متى أَضعِ العمامةَ تعرفونى

---

(١) ابن جلا : الصبح يجلو سواد الليل .

(٢) والثنايا : الطرق في الجبال . وطلاّعها : جلد يتحمل المشاق ، أو يسعى لمعالي الأمور !

وكان الحجاج صاحب ذوق فى الشعر يجمع لديه الشعراء من أمثال : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، وليلى الأخيلية ، فلا عجب أن تمتلئ بذكره كتب الشعر والأدب والنقد كما امتلأت كتب الوقائع والحروب والسياسة والرياسة !

فتعال نتابع خطاه ، ونطالع قصصا بقى لنا من ذكراه ، حيث يتاح لك أن تعرف الكثير من جوانب هذه الشخصية التى حارت فيها الآراء ، واختلفت الأهواء .

والله يعصمك ، ويرشدك .

المحاسن والمساوئ

قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان :

ذُكر «الحجاج» عند «عبد الوهاب الثقفى» بسوء فغضب وقال : إنما تذكرون المساوئ ، أوَمَا تعلمون أنه :

● أول من ضرب درهما عليه : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

● وأول مَن بنى مدينة - بعد الصحابة فى الإسلام ، وسماها «واسط» لتوسطها بين الكوفة والبصرة .

● وأول من اتخذ المحامل [1] .

● وكفاه فخرا أن امرأة من المسلمين سُبيَتْ [2] فى «الهند» فقالت : «وَاحَجّاجَاه!!» فاتصل به ذلك ، فجَعل يقول : «لبَّيْك لَبَّيْك يا أختاه!!» وأنفق سبعة آلاف درهم حتى أنقذ المرأة !

● واتخذ «المناظر [3]» بينه وبين قزوين ، فكان إذا دخّن أهل قزوين دخنت المناظر ، وإن كان ليلا أشعلوا نيرانا فتجرى

(١) جمع محمل ، وهو الهودج .
(٢) أسرت .
(٣) المناظر : قلاع ، وما أشرف من الأرض وارتفع .

الخيل إليها ، فكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط ، وأصبحت قزوين ثغرا حينئذ .

وعندما كثر التصحيف [1] -بعد أن ظل الناس يقرءون فى مصحف عثمان نيفا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان فزع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه ، وسألهم أن يصنعوا للحروف المشتبهة علامات .

دعانى من هو خير منك

حكى التَّنّوخى قال :

رُوى أن الحجاج حَجّ فنزل يوماً على ماء بين مكةَ والمدينة ، فدعا بالغَداء ، وكان من عاداته أن لا يتغدى وحده ، فقال لحاجبه : انظر من يتغدى مَعِى!

فخرج الحاجب ، فنظر نحو الجبل ، وإذا هو بأعرابى بين شملتين [2] من شَعَر - نائم - فأيقظه ، وقال له :

إيتِ الأميرَ ، فأتاه ، فقال له الحجاج :

اغسل يدَك ، واقعد ، فتغدَّ معى ، فقال :

إنه دعانى من هو خير منك فأجبته ؛ فقال له :

ومن هو ؟ قال : اللّه عز وجل دعانى إلى الصوم فصمت .

قال : فى مثل هذا الحر الشديد؟!

قال : نعم ، صمت ليوم هو أشد منه حرًا .

قال : فأَفْطِر اليوم ، وصُمْ غَدًا .

قال : إن ضمنت لى البقاء إلى غد !

(١) صحف الكلمة : كتبها ، وقرأها علي غير صحتها لاشتباه فى الحروف .

(٢) الشملة : كساء من صوف أو شعر يتغطى به ، ويتلفف به .

قال : ليس ذلك إلىّ !

قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل لاتقدر عليه ؟

قال : إنه طعام طيب !

قال : لم تطيبه أنت ولا الطباخ ، وإنما طيبته العافية .

عندما تبسم الحجاج

وجه «الحجاج» إلى «هند» بنت إسماعيل بن خارجةَ من يخطبها ، ووجه إليها ثلاثين غلامًا مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية ، مع كل جارية صندوق ثياب ، وقال لها :

«إنى أكره أن أكون خِلْوًا ، ومالى زوجة»

فقالت : وما احتباس امرأةٍ عن زوجها ، وقد ملكها ، وآتاها صداقها ، وكرامتها؟! ثم أصلحت من شأنها ، وأتته من ليلتها !

ويقول المدائنى : بلغنى عن المرأة التى تولت زفَّها إليه أنها قالت :

دخلنا على الحجاج ، وهو فى بيت عظيم ، فى أقصاه ستارة، وهو دون الستارة على فرشه .

فلما دخلتُ عليه سلمت ، فأومأ [1] إلىَّ بقضيب كان فى يده ، فجلست عند رجليه ، ومكث ساعة لا يتكلم ومن معى وقوف!!

فضربَتْ بيدها على فخذه ، وقالت :

«ليس هذا وقت سوء الخُلق» !!

فتبسم الحجاج ، وأقبل عليها ، واستوى جالسًا ، فدَعَوْنا له، وأرخينا الستور عليهما!!»

(١) أومأ : أشار ، والقضيب الغصن ، ويقال للسيف قضيب أيضا .

مم ضحك الحجاج ؟

كان الحجاج يُحبُّ الفكاهة الرائقة ، ويستطيبها حتى ولو أصابه [1]!

ذكروا أنه خرج بلا حرس متنكرا يتفقد أحوال الناس ، فصادف رجلا فى طريقه ، فسأله عن الحجاج ، **فأطلق الرجل لسانَه فى الحجاج سَبًا وشتمًا ،وتجريحا!**

وحِين انتهى الرجل قال له الحجاج :

أتعرف من أنا ؟ قال الرجل : لا .

فقال له الحجاج : أنا الحجاج .

وهنا قال الرجل : أتعرف من أنا ؟

قال الحجاج : لا .

قال الرجل : وأنا «مجنون بنى عجل» يصيبنى الصَّرْع مرتين فى الشهر ؛ فلا أدرى ما أقول !

فضحك الحجاج من كل قلبه ، وأمر للرجل بجائزة ! ، على حسن تخلصه !!

لماذا أطلق الحجَّاجُ سَراحَه؟

تغزل الشاعر «النُّميرى» بـ«زينبَ» أخت الحجاج بقوله :

ولما رأتْ ركْبَ النُّمَيْرىّ أعرضَتْ

وكُنّ من أن يَلْقَيْنَه حَذرَاتِ[2]

(١) أى ، ولو رأى فيها تعريضا به أو مَسَاسا ، أو نيلا منه ، ونقدا له ، كما فى هذه القصة !

(١) الشاعر النميرى هو محمد بن عبد الله شاعر غزل من شعراء الدولة الأموية يصف ما كان من محبوبته زينب ـ أخت الحجاج من إعراض وحذر حين رأت ركبه ، ومعها صاحبات لها .

فسأله الحجاج - بعد أن أمسك به - وقال له :

مِمّ كان يتألف رَكْبُك الذى رأته ، فأعرضت عنه حَذَرًا ؟!

فأسعفته سرعة بديهته أن يقول :

كان يتألف منى ، ومن حمارٍ هزيل !

فأضحك الحجاج ، ورقَّقَتْ هذه الفكاهة الخفيفة قلب الحجاج القاسى الغليظ !

فأطلقه ، وعفا عنه ، ونجا الشاعر بـ «جلده» !

ويْحَك يا شَعْبِىّ !

قال الحجاج للشعبى :

كم عطاءَك ؟!

فقال الشعبى : ألفين !

فقال الحجاج : ويحك كم عطاؤك ؟

فقال الشعبىّ : ألفان .

فقال الحجاج : كيف لحنت أولا ؟

فقال الشعبى : لحن الأمير ، فلحنت !

فلما أعربَ أعربت !

وما يَحْسُنُ أن يلحَنَ الأميرُ وأُعْرب !

فاستحسن الحجاج منه ذلك وأجازه !

ووجه الخطأ أن كم استفهامية لها الصدارة مع أنها خبر مقدم ، فكأن أصل الكلام : «عطاؤُك كم؟».

وتكون الإجابة عنها بذكر الخبر الذى حذف مبتدؤه للعلم به وهو مرفوع لا منصوب . فيقال جوابا عن السؤال : ألفان لا ألفين .

فلما لحن الحجاج لحن الشعبي أدباً مع ولي الأمر وتلطفاً . واللحن الخطأ في ضبط الكلمة والنطق بها على قواعد الإعراب من رفع ، ونصب ، وجر ، وجزم .

ليلى الأَخْيَلِيّة والحَجّاج

«ليلى بنت عبد الله بن الرحّال» من النساء المتقدمات فى الشعر ، وقد أحبها «توبة بن الحُمَيِّر» وهام بها ، ولكن أباها زوّجها غيره ، فعاشت معذبة لفراقه ، وتمنى لو يراها ، ولكن السلطان أهدر دمه إن هو لاحقها ! ، وتعرض لها !!

ويقول أبو الفرج :

أخبرنى الحسن بن على عن رجل يقال له : ورقاء قال : سمعت الحجاج يقول لليلى الأخيلية : إن شبابك قد ذهب ، واضمحلّ أمرُك ، وأمرُ «توبة» فأُقسِمُ عليك إلا صَدَقْتِنى!

هل كانت بينكما ريبةٌ قطّ ، أو خاطبك فى ذلك قط ؟

قالت : لا والله أيها الأمير ، إلا أنه قال لى ليلة - وقد خلونا- كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر ، فقلت له :

وذى حاجة قلنا له : لاتَبُح بها

فليس إليها ماحييتَ سبيلُ

لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونه

وأنت لأخرى فارغٌ وحليلُ [1]

---

(١) حليل المرأة : زوجها .

فلا والله ما سمعت منه ريبةً بعدَها حتى فرق بيننا الموت !

قال لها الحجاج : فما كان منه بعد ذلك ؟

قالت : وجّه صاحبا له إلى حاضرنا [1] ، وقال له : إذا أتيت حيها ، فاصعد إلى أعلى مكان ثم اهتف بهذا البيت .

عـفـا الله عنهـا اهل أبيتن ليلةً

من الدهر ، لايَسْرى إلىّ خيالُها ؟!

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى ، فقلت له :

وعنه عَفَا رَبّى ، وأحسنَ حفظه

عزيز علينا حاجةٌ لا ينالها

اذهب فاقطع لسانها !!

روى الأصبهانى قال : أخبرنى الحسن بن على عن رجل من بنى عامر يقال له «ورقاء» قال :

كنت عند الحجاج بن يوسف فدخل عليه الآذن [2] ، فقال : أصلح الله الأمير ، بالباب امرأة تهدر كما يهدر البعير النادّ [3] .

فقال ، أَدخِلها ، فلما دخلت ، وعَرفَها قال لها :

ما أتى بك ياليلى ؟

قالت : إخلاف النجوم [4] ، وقلّة الغيوم، وكَلَبُ البرد [5] . وشدة الجَهد ، وكنت لنا - بعد الله - الرِّدّ [6].

قال : فأخبرينى عن الأرض .

---

(١) حينا .

(٢) من يأذن بالدخول عليه . (٣) النادّ : الشارد .

(٤) تريد امتناع المطر مما تسبب عنه الجدب ، والقحط ، والجفاف ، والتصحر .

(٥) شدته . (٦) الرد : العماد .

قالت : الأرضُ مقشعرّة [1] ، والفجاج مغبرة [2] ، وذوالغنى مُخْتَلّ [3] ، وذو الحدّ مُنْفَلّ [4] !

قال : وما سبب ذلك ؟

قالت : أصابتنا سنون مجحفة [5] مظلمة ، لم تدع لنا فصيلاً ولا رُبَعًا [6]، ولم تُبق عافطةً ولا نافطة [7] ؛ فقد أهلكت الرجال ، ومزقت العيال ، وأفسدت الأموال .

وعندئذ قال الحجاج : هذه هى ليلى التى تقول :

نحن الأخايلُ [8] لا يزال غلامنا
حتى يَدِبَّ على العصا مشهورا
تبكى الرماحُ إذا فقدن أكفَّنا
جزَعًا ، وتعرفُنا الرفاقُ بُحورَا

ثم قال لها : ياليلى ، أنشدينا بعض شعرك فى «توبة» فقالت :

لَعَمْرُكَ ما بالموت عارٌ على الفَتَى
إذا لم تُصبه فى الحياة المعايرُ
وما أحدٌ حَىّ ، وإن عاش سالماً
بأخلدَ ممّن غيَّبَتْه المقابرُ
فلا الحىُّ مما أحدث الدهرُ مُعْتبٌ
ولا الميْتُ إن لم يصبرِ الحىُّ ناشر

(١) أصابها الجفاف لعدم نزول المطر .
(٢) الفجاج جمع فج ، وهو الطريق بين جبلين.
(٣) مختل : محتاج من الخلة وهي الحاجة . (٤) منفل : منكسر متثلم .
(٥) السنون جمع سنة ، وهي القحط ، مجحفة : أذهبت الأموال ، وأصابتها بالضرر .
(٦) الفصيل : ولد الناقة أو البقرة – إذا فصل عن أمه ، والرُّبع: ما نتج في الربيع.
(٧) العافطة : الضائنة . النافطة : الماعزة .
(٨) الأخايل : الذين ينتمون إلى الأَخْيل جدها فارس الهرّار .

وكلُّ جَـــديد ، أوشـــبـــابٍ إلى بِلَى

وكلُّ امـــرئٍ يومـــاً إلى الموت صـــائرُ

فقال الحجاج لحاجبه : اذهب فاقطع لسانها [1]!!

فدعا لها بالحَجّام [2] ليقطع لسانها !

فقالت : ويلك !

إنما قال الأمير : اقطع لسانها بالصِّلَةِ والعَطاء ، فارجع إليه واستأذنه!!

فرجع إليه فغضب من غباء الحاجب ، وهَمّ بقطع لسانه ، ثم أمر بها فأدخلت عليه ، فقالت :

كاد - وعهد الله - يقطع مِقْوَلى «لسانى» ، وأنشدته:

حَـــجّـــاج أنت الذى لا فـــوقـــه أحـــد

إلا الخـيلفـة ، والمستـغْـفَـرُ الصَّمـد

حجاجُ أنت سِنانُ الحرب إن نُهجتْ [3]

وأنت للناسِ فى الداجى لنا تَقِـد [4]

ثم قالت :

أَحَـجّـاجُ لا يُفْلَلْ سـلاحُك إنهـا الـ

مـنـا يـا بـكـفِّ الله حَـــــيْـثُ تَـرَاهَـا

إذا وَطِئَ الحَـجّـاجُ أرضـاً مـريضـةً

تَتَـبّـعَ أقَـصَى دائهـا فـشَـفَـاهَـا

---

(١) يريد أعطها ما يجعلها ترضى ، وتسكت .

(٢) أشبه بالحلاق غير أن له مهمة أخرى !

(٣) نهجت : سلكت . الداجي : المظلم .

(٤) تقد : توقد نارك ، أرادت أنه إذا نزل بهم ضيق فرجه .

شفاها من الداء العُضَالِ الذى بها

غلام إذا هزّ القناةَ سَقَاهَا [1]

أحجاجُ لا تُعط العُصَاةَ مُنَاهُمُ

ولا اللهُ يُعْطى للعصاةِ مُنَاهَا

فلما قالت : «غلام إذا هَزّ القناة سقاها»

قال لها : لا تقولى «غلام» قولى «هُمَام» .

وأمر لها بمائتين ، فقالت : زِدنى .

فقال : اجعلوها ثلاث مئة .

قال بعض جلسائه : إنها غنم !

فقالت : الأمير أكرم من ذلك ، وأعظمُ من أن يأمر لى إلا بالإبل !

قال : فاستحيا ، وأمر لها بثلاث مئة بعير ، وإنما كان أمر لها بغنم لاإبل !

ويقول الأصمعى : إن الحجاج أمر لها بعشرة آلاف درهم ، وقال لها : هل لك حاجة ؟

قالت : نعم ، أصلح الله الأمير ! ، تحملنى إلى ابن عمى «قتيبة بن مسلم» وهو على خراسان يومئذ - فحملها إليه ، فأجازها ، وأقبلت راجعة تريد البادية ، فلما كانت بالرَّى ماتت، ودفنت هناك.

(١) القناة : يعني الرمح ، وسقاها من دماء أعدائه من الطغاة والبغاة والخارجين .

الحجاج وامرأة من الخوارج

قيل : أُتِىَ الحجاج بامرأة من الخوارج ، فجعل الحجاج يكلمها وهى مطرقة إلى الأرض لا تُكلمه ، ولاتنظر إليه !

فقال لها رجل من الشُّرَط [1]:

الأمير يكلمك ، وأنت معرضة ؟!

فقالت : «إنى لأستحى من الله أن أنظر إلى رجل لا ينظر الله إليه» .

نعم لقد قضى الحجاج على كل حركات التمرد ، وواجه الخوارج على الدولة بكل حزم ، وبلا رحمة ولاشفقة وكانت السياسة التى أعلنها سياسة الحكم العُرفى ، أو الحكم العسكرى - كما نعبر عنه اليوم - ولكنه جرى عليها طوال حكمه!

الحجاج وعِمران بن حِطّان

أمر الحجاج بقتل عمران بن حِطّان حينما خرج على بنى أمية ، فقال للسياف :

اضرب عنق «ابن الفاجرة» .

فقال عمران : لبئس ما أدّبك أهلُك ياحجاج !

كيْف أمنتَ أن أجيبك بمثلِ مالَقَّبْتَنِى به ؟!

أفبعد الموت منزلة أُصانعُك عليها [2] ؟!

(١) الشُّرَط : حفظة الأمن فى البلاد ، الواحد شُرْطىّ بسكون الراء وشُرَطى - بفتحها - والجمع : شُرَط .

(٢) مادمت قد حكمت على بالقتل فما الذى يجعلني أسكت على الإهانة ، وأرضى بالإساءة ،وأتقبل منك مالقبتنى به ؟! وهل بعد الحكم بالموت ما يخاف منه ؟!

فخجل الحجاج ، وإن شئت فقل :

أثّرت فيه بلاغةُ الرجل وشجاعتهُ ، فقال : خَلُّوا عنه!

فطوقت عنقَ الرجل الخارجى «عمرانَ بن حِطان» هذه المكرُمة من الحجاج !

وجاءه أصحابه بعدها يؤلبونه [1] لحرب الحجاج ، فقال : هيهات ، ثم هيهات ! ؛ لقد غلَّ يدًا مُطْلَقُها ! ، وأسَرَ رَقَبَةً مُعْتَقُها!» ، فذهبت على وجه الزمان مثلا!!

لم عزل عبدُ الملك الحجاج عن الحرمين الشريفين ؟

يقول «أبو القاسم التَّنّوخى» فى كتابه : «المستجاد من فعلات الأجواد» :

لما قتل «الحجاج» «عبد الله بن الزُّبير» رحل إلى «عبد الملك ابن مروان» ومعه «إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله» فلما قدم على عبد الملك لم يبدأ بشىء من الكلام سوى أن قال : قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز فى الشرف ، والأبوة ، ولم أدَعْ له فيها - والله - نظيرا فى كمال المروءة ، وحسن المذهب والطاعة ، والنصيحة مع القرابة من أمير المؤمنين : «إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله» ، فافعل به يا أمير المؤمنين مايستحق أن يفعل بمثله فى أبوته وشرفه !

فقال له : يا أبا محمد ؛ أذْكَرْتَنَا حقًا واجبا ، ورَحِمًا قريبة ، ائذنوا لإبراهيم .

فلما دخل وسلم ، أمره بالجلوس فى صدر المجلس ، وقال

(٢) يحرضونه عليه ، ويفسدون ما بينه وبينه !

له : إن أبا محمد «يعنى الحجاج» ذَكَّرَنَا مالم نَزَلْ نعرفك به فى الأبوة والشرف ، فلا تدع حاجة من خاصّ أمرك وعامّه إلا سألتنيها !

فقال إبراهيم :

أما الحوائج التى ينبغى بها الزُّلَف [1] ، ويرجى بها الثواب ، فما كان لله خالصًا ولنبيه محمد ﷺ ، ولك وللمسلمين عندى نصيحة لا أجد بُدًّا من ذكرى إياها !

قال : أهى دون أبى محمد ؟

قال : نعم .

قال : قم يا حجاج .

قال : فنهض الحجاج خَجِلاً لا يُبصر أين يطأ ؟

ثم قال : قل يابن طلحة ؛ فقال :

يا أمير المؤمنين إنك عمدت إلى الحجاج فى ظُلَمه وتَغَطْرسه ، وتعدّيه ، وبعده عن الحق ، وإصغائه إلى الباطل ؛ فولّيته الحرمين ، وفيهما من أبناء المهاجرين والأنصار ، وأصحاب الرسول ﷺ يسومُهم الخسف [2] ، ويطؤهم بالعسف بطغام [3] أهل الشام ، ورَعَاعٍ [4] لا رويةَ لهم فى إقامة حق ، ولا إزاحة باطل فاعزله !

فأطرق عبد الملك ، ثم رفع رأسه ، وقال : كذبت ودسست يابن طلحة ! ، ولقد ظن بك الحجاج غير ما هو فيك ، قم فربما ظُنّ الخيرُ بغير أهله!!

(١) القربى والمنزلة . جمع زُلْفة .

(٢) يذيقهم ذلا . والحرمان : مكة والمدينة (٣) أرذل الناس وأوغادهم .

(٤) الرعَاع : بضم الراء وفتحها ، ولا تكسر : أوغاد الناس .

قال إبراهيم : فقمت ، وأنا ما أبصر طريقا !

قال : وأتبعنى حَرَسيًا [1] ، وقال : اشدُدْ يدك به !

قال إبراهيم : فما زلتُ جالسًا ، ودُعِىَ الحجاج ، فمازَالاَ يتناجيان طويلا حتى ساء ظنى ، ولا أشك فى أنه فى أمرى !

قال : ودعانى ثانية ، فلقينى الحجاج فى الصحن [2] خارجا ، فقبل بين عينىّ وقال :

إذا جزى الله المتآخيين بفضل وُدِّهم خيرا فليحسن جزاءك ! والله لئن عشت لك لأرفعن ناظرك ، ولأوطئن عقبك (٣)!

قال : فقلت فى نفسى : يهزأ بى - والله - الحجاج !

ودخلت على عبد الملك فأجلسنى مجلسى ، ثم قال :

يابن طلحة ، هل شركك فى نصيحتك أحد ؟

فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولا أردت إلا الله ورسوله ، والمسلمين وأنت !

قال : قد علمت ذلك ، وقد عزلت الحجاج عن الحرمين عندما كرهتَه ، وأعلمته أنك استقللت له ذلك ، وسألتنى له ولايةً كبيرة ليلزمه من ذمامك ما يؤدى به عنى إليك أجر نصيحتك ، فاخرج معه ، فإنه غير ذامٍّ صُحْبَتَك !

---

(١) شرطيا .
(٢) فى الفناء .
(٣) الناظر : الرسول ، ورفعه رفع لمرسلة ، ويقال : فلان مُوطَّأ العقب : كثير الأتباع ، ويلزم من هذا رفع منزلته .

جاء فى «نهاية الأرب فى فنون الأدب» للنويرى ، المجلد الحادى والعشرين ؛ روى أن «عمر بن عبد العزيز» خامس الراشدين - وهو الذى كان أشبه بجده عمر بن الخطاب وملأ الأرض عدلا - ذُكِرَ عنده ظلمُ الحجاج وغيره من وُلاة الأمصار[1] فى أيام الوليد بن عبد الملك ، فقال عمر بن عبد العزيز:

الحجاج بالعراق ! والوليد بالشام !

- وقرةُ بنُ شريك بمصر!
- وعثمانُ بالمدينة !
- وخالد بمكة !

اللهمّ قد امتلأتِ الأرضُ ظلماً وجورًا ، فأرِح الناسَ ! فلم يمضِ غير قليل ، حتى تُوفِّى الحجّاج ، وقرّةُ فى شَهر واحد !

ثم تبعهما الوليد ، وعُزل عُثمانُ بن حَيّان ، وخالد بن عبد الله القسرى !

واستجاب الله لعمر[2] !

وما أشبه هذه القصة بقصة عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - لما بلغه أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية يقول:

(١) جمع مِصْر ، أى الأقاليم .

(٢) أما الحجاج فقد عشت معه فى هذا الكتاب ، وأما الوليد فهو الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وكان ولى عهده . وأما قرة بن شريك ، فقد ولى مصر زمن الوليد ، وكان جباراً مخوفا كالحجاج . وأما عثمان بن حيان المرى فهو والٍ من الغزاة استعمله الوليد على المدينة سنة ٩٣هـ وكان عنيفا فى سيرته. وأما خالد بن عبد الله القسرى فقد ولى مكة . وزاد فى «نثر الدر» محمد بن يوسف باليمن ، وهو أخو الحجاج وكان ظالماً . وإذا كانت دولة الظلم ساعة ، فإن دولة العدل إلى قيام الساعة .

إنى ضبطت العِراق بشمالى ، ويمينى فارغة !

فقال ابن عمر :

اللهم أرحنا من يمين زياد ، وأرح أهل العراق من شماله !

فاستجاب الله له !

ولا عجب ، فدعوة المظلوم تفتح لها أبواب السماء، والظلم مرتعه وخيم !

لماذا بكى الحجّاج ؟

ذكر النُّوَيْرِىّ من أخبار الحجاج أن عبد الملك كتب إليه يأمره بقتل «أسلم بن عبد الله البكرى» لشىء بلغه عنه !

فأحضره الحجاج ، فقال : أميرُ المؤمنين غائب ، وأنت حاضر ، والله تعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦]

والذى بلغه عنى باطل ، فاكتب إلى أمير المؤمنين أنى أعول أربعاً وعشرين امرأة ، وهُنّ بالباب ، فأحضرهن ، وكان فى آخرهن جارية [1] قاربت عشر سنين ، فقال لها :

من أنت منه ؟ قالت : ابنته ، أصلح الله الأمير ، ثم أنشأت[2]

أحَجّاجُ لوتشهد مقامَ بناتِه
وعَمّاتِه يَنْدُبْنَه الليْلَ أجْمَعَا
أحَجّاجُ لا تَقْتُلْ بِهِ إنْ قَتَلْتَهُ
ثمانياً ، وعَشْراً واثنتين وأربَعَا

(١) جارية : فتاة صغيرة .

(٢) الشعر في الكامل أيضا ٤-٣٣

أحـجـاج مَنْ هـذا يقوم مـقـامَـه

علينا ؟ ، فمهلاً ، أن تزدْنا تَضَعْضُعًا

أَحَـجّـاجُ إمّـا أن تجـودَ بنعـمـةٍ

علينا ، وإمـا أن تُقَـتّلنا مَـعًـا

فبكى الحَجّاج ، وقال : والله لا أعنتُ الدهرَ عليكن ، ولا زَدْتكُنَّ تضعْضُعًا

وكتب إلى «عبد الملك» يخبره ، بخبر الجارية ، فكتب إليه :

إذا كان الأمرُ كما ذكرت ؛ فأحْسِنْ صِلَتَه ، وتفَقّد الجارية ! ، ففعل .

الحجاج وأنس بن مالك

كان «مصعب بن الزبير» عندما تولى أمر العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير قد زاد الناس فى العطاء مائة مائة .

فلما وُلّى الحجاج بعد مقتل «مصعب وأخيه» ، قال لأهل العراق : إن الزيادة التى زادكم إياها ابن الزبير لسنا نُجيزُها !

فرد عليه «عبد الله بن الجارود» قائلا :

إنما هى زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أنفذها وأجازها على يد أخيه بِشْر !

فغضب الحجاج وهدد ابن الجارود ، وانضم إلى ابن الجارود أصحاب العطاء ، الثائرون لقطع جزء من أرزاقهم ، وكان ممن انضم إليه عبد الله بن أنس بن مالك ، وكان ممن قُتِلَ مع ابن الجارود فى معركة حامية !

ولما عاد الحجاج إلى البصرة أخذ «مال عبد الله»، فدخل عليه أنس بن مالك - رضي الله عنه - فحين رآه الحجاج ، قال له : لا

مرحبًا ، ولا أهلاً !!

شيخ ضلالة ، جوّال فى الفتن !

مرةً مع أبى تراب «على بن أبى طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»

ومرة مع ابن الزبير !

ومرة مع ابن الجارود !

أما والله لأَجْرِدَنّكَ جَرْدَ القضيب ، ولأقلعنّك قلع[1] الصمغة!

فقال أنس : من يعنى الأمير ؟

فقال : إياك أعنى ، أصَمّ اللّهُ صَدَاك ! (دعاء بالهلاك)

فرجع أنس ، فكتب إلى الخليفة عبد الملك كتابا يشكو فيه الحجاج ، وماصنع به .

فكتب عبد الملك إلى الحجاج رسالة شديدة اللهجة جاء فيها :

أما بعد يابن أم الحجاج ، فإنك عبد طَمَتْ بك[2] الأمور فغلوت فيها ، حتى عدوت طورَك ، وتجاوزت قدرك ، لأغمزنك غمزة من غمزات اللُّيوث الثعالب، ولأخبطنك خبطة تودّ لها لو أنك رجعت فى مخرجك من بطن أمك ، أما تذكر حال آبائك بالطائف حين كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ، ويحفرون الآبار بأيديهم ؟

أما نسيت حال آبائك فى اللؤم والدناءة ، وفى المروءة والخلق ؟

---

(١) القضيب : الغصن ، وجرده : إزالة ما عليه من قشر وورق وقلع الصمغة : انتزاعها من مكانها بالشجر .

(٢) أغوتك ، وزادتك طغيانا على طغيانك .

وقد بلغ أميرَ المؤمنين الذى كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداماً !

ولولا أن أمير المؤمنين ظن أن الكاتب كثر فى الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأتاك من يسحبك ظهراً لبطن ، حتى يأتى بك أنس ، فيحكم فيك !

فأكرم أنسا وأهلَ بيته ، واعرف له حقه ، وخدمته رسول الله ﷺ ، ولا تقصّرن فى شىء من حوائجه ، ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبره ، وإكرامه ! فيبعثَ إليك من يضربُ ظهرك ، ويهتكُ سترك ، ويُشمت بك عدوك .

والقَه فى منزله متنصّلا إليه [1] ، وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله . والسلام .

واجتمع الحجاج بأنس ، ورحب به ، وأدناه ، واعتذر إليه ، وقال :

أردت أن يعلم أهل العراق إذ كان من ابنك ماكان، وإذ بلغتُ منك ما بلغت ، أنى إليهم بالعقوبة أسرع .

فقال أنس : ماشكوتُ حتى بلغ منى الجَهْد !

وقد زعمت أَنَّا الأشرار ، وقد سمانا الله الأنصار!

وزعمت أَنَّا أهلُ النفاق ، ونحن الذين تبوّءُوا الدار والإيمان ، وسيحكم الله بيننا وبينكَ ، فهو أقدر على التغيير ، لا يشبه الحق عنده الباطل ، ولا الصدق الكذب!

وزعمت أنك اتخذتنى ذريعة وسُلّما إلى مَسَاءَة أهل العراق

---

(١) متنصلا إليه : معتذرا .

باستحلال ما حرم الله عليك منى ، ولم يكن لى عليك قوة ، فوكلتُك إلى الله ، ثم إلى أمير المؤمنين ، فحفظ من حقى مالم تحفظ!

ولو أن النصارى رأوا رجلا خدم عيسى بن مريم يوما واحدًا لعرفوا من حقه مالم تعرف أنت من حقى ، وقد خدمت الرسول ﷺ عشر سنين !

وبعد ... فإن رأينا خيرا حمدنا الله عليه ، وأثنينا، وإن رأينا غير ذلك صبرنا ، والله المستعان .

ورد عليه الحجاج ما كان أخذ منه .

ولن يضيع حق وراءه مطالب !

الحجاج عند المحن

قال الجاحظ :

لما مات «محمد» بن الحجاج جزع عليه فقال :

«إذا غسّلتموه فأعلمونى»

فلما نظر إليه قال :

الآن لَمّا كنتَ أكرم مَن مشى

وافْتَرَّ نابُك عن شَبَاةِ [1] القارح

وتكاملتْ فيكَ المروءةُ كُلُّها

وأعَنْتَ ذلك بالفَعَالِ الصالح؟

ثم أتاه موت أخيه «محمد بن يوسف» فقال :

«إنا لله ، محمدٌ ، ومحمدٌ فى يوم» ثم أنشد :

---

(١) معنى ظهور نابه تجاوز مرحلة أسنان اللبن ، وكبر واكتمل كما يكتمل الفرس (القارح) الذى تجاوز شباة (حد) الصغر . واستتم خمس سنوات . بدليل البيت بعده .

حَسْبى ثوابُ الله من كُلِّ مَيّت

وحَسْبى بقاءُ الله من كُلِّ هالكِ

إذا ما لَقيتُ الله عنى راضياً

فإنّ شفاءَ النفسِ فيما هنالك

الحجاج فى مرض الموت

حين مرض الحجاج كتب إلى الوليد بن عبد الملك كتابا يخبره بمرضه ، وكتب فى آخره :

لقد ذاق هذا الموتَ مَنْ كان قبلنَا

ونحن نذوق الموتَ من بعد ذلك

وكان ينشد فى مرض موته :

يارِبِّ قد حلَفَ الأعداءُ واجتهدوا

أيمانَهم أننى من ساكنى النّار

أيحلفون على عمياء[1] ويْحَهُمُ

ماظنُّهُمْ بعظيم العفوِ غَفَّارِ؟!

وذكر بعضهم أن الحجاج حين حضرته الوفاة كان يغيب عن وعيه ، ثم يُفيق ، ويصيح :

مالى ولسعيد بن جُبَير؟!!

ويقال: إنه ظل مريضا قبل الموت مدة ، فكان إذا نام رأى سعيد بن جبير آخذا بمجامع ثيابه ، وهو يقول له : يا عدوّ الله ؛ فيم قتلتنى ؟!

فيستيقظ الحجاج مذعورا وهو يقول :

مالى ولسعيد بن جُبير ؟!

(١)على عمياء : علي أمر معمى ومغيب علمه عند الله .

ويقول الجاحظ : لما مات الحجاج خرجت عجوز من داره وهى تقول :

اليوم يرحمنا من كان يَغْبِطُنَا [1]

واليوم نَتْبَعُ مَن كانوا لنا تَبَعَا

وبعد .. فهذا هو الحجاج بما له وما عليه !

وأمره لله !

(١) يغبطنا : يتمنى أن يكون له مثل مالنا من النعمة من غير أن يتمنى زوالها عنا .